المحاضرة السادسة: علم مناهج البحث (النشأة و التطور)

علم مناهج البحث أو اختصاراً علم المناهج يهدف إلى الكشف عن الحقيقة العلمية الكامنة وراء ظواهر الوجود الطبيعية والاجتماعية ، ويتطابق هذا التحديد المختصر لعلم المناهج إلى حد كبير مع معناه اللغوي؛ عبارة عن ترجمة للّفظة الإنكليزية «ميتودولوجيا» methodology التي تعود في أصولها اللغوية إلى اليونانية، والتي تتألف من شطرين؛ الأولmethod ويعني منهج، والثاني اللوغوسlogos ويعني علم ، وعلى هذا الأساس، فليس علم المناهج في الحقيقة علماً يضاف إلى العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية وكأنه واحد منها، بل هو وراء هذه العلوم كلها، يراجع مناهجها وطرائقها وأدواتها البحثية ويقوّم كفاءتها بهدف تطوير أدائها ،وهنا تكمن أهمية علم المناهج الذي يهتم بتحديد الكيفية التي تتم بموجبها عملية توليد المعرفة العلمية ليس حول ظواهر الطبيعة فحسب، بل حول الظواهر الاجتماعية أيضا؛ إذ إن خصوصية الظواهر الاجتماعية مقابل الظواهر الطبيعية لا تنفي في أي حال من الأحوال إمكانية استخدام المنهج العلمي في دراستها، كما يحلو للبعض قوله [1] ،وعلم المناهج الذي لا يأخذ في الحسبان وحدة العلوم وتكاملها هو علم ناقص وأعرج، إذ بات اليوم من غير الممكن الاستغناء عنه سواء في العلوم الطبيعية أم في العلوم الاجتماعية.

نشأته وتطوره:

تعود الإرهاصات الأولى لنشوء علم المناهج إلى العصر القديم، عندما اهتم أرسطوAristotle في كتابه «الأورغانون» Organon بالمناهج التي يمكن من خلالها توليد المعرفة العلمية برأيه، فرآها بالمنهج القياسي الذي يبدأ بمسلمات وينتهي بنتائج ، وفي العصور الوسطى كان للعرب الفضل في التأسيس لعلم مناهج البحث عندما حاولوا عملياً ونظرياً إرساء القواعد المنهجية للبحث العلمي التي تقوم على الملاحظة والفرضية والتجربة. فالحسن بن الهيثم ، على سبيل المثال، لم يستخدم المنهج العلمي بشكل عملي فحسب، بل أسس له نظرياً أيضاً، داعياً إلى البدء في البحث باستقراء الموجودات وتمييز خواص الجزئيات، مؤكدا من خلال ذلك ضرورة الالتزام بالحقيقة الموضوعية بعيداً عن الهوى والمزاج.

أما العصر الحديث فقد شهد الولادة الحقيقية لعلم مناهج البحث على يدي العلامة الإنكليزي المعروف فرنسيس بيكون F. Bacon الذي وضع إبان عصر النهضة الأوربية الحديثة كتابه المشهور «الأورغانون الجديد» The New Organon ليعارض به أرسطو فى كتابه «الأورغانون» القديم ،إضافة إلى بيكون، يعد إمانوئيل كَانت E.Kant، الفيلسوف الألماني، أول من استخدم كلمة «ميتودولوجي»Methodologie قاصداً بها، من جهة، «علم المناهج العام» الذي يشتمل على المبادئ والأسس المنهجية التي تساعد على الحصول على المعرفة العلمية عموماً، ومن جهة أخرى «علم المناهج الجزئي» الذي يتضمن جملة الإجراءات والعيمليات المنهجية التي يجب اتباعها في هذا العلم أو ذاك.

وهكذا أضحى علم المناهج واحداً من الاختصاصات العلمية الرمزية المستقلة بذاتها؛ فخلافاً لما يؤكده بعض الدارسين من أن علم المناهج كان ولا يزال جزءاً من المنطق وتابعاً لمملكته، يشير واقع الحال إلى غير ذلك، وإن كان لا ينفصل عنه وعن غيره من الاختصاصات الرمزية الأخرى – كنظرية المعرفة مثلاً– كلياً ، ويرتبط علم المناهج بنظرية المعرفة ارتباطاً وثيقاً، إذ إن نظرية المعرفة تزود علم المناهج بأسس التفكير المنهجي عموماً، وبكيفية الحصول على المعرفة ومصدرها ومعاييرها العامة، إضافة إلى القواعد المنهجية الخاصة باختبار المعارف الفرضية، وتلك الخاصة بالحصول على معارف جديدة[2].

علم مناهج البحث هو كأي علم آخر، عبارة عن مجموعة منظمة من مبادئ عامة تدور حول موضوع معين، والموضوع في هذه الحالة هو المناهج والطرائق التي يستخدمها العلماء في بحوثهم، ولما كانت العلوم تختلف في مادتها فهي كذلك تختلف في مناهجها قليلاً أو كثيراً؛ لأن منهج البحث إنما يكيف نفسه لمادة الموضوع إلى حد كبير ، بناء عليه، يبحث علم المناهج في تاريخية المناهج وطرائق البحث العلمي من حيث النشأة، بل من حيث الأسباب التي أدت تاريخياً للمناهج وطرائق البحث، كما تبحث في التقويمات المختلفة تاريخياً للمناهج وطرائق البحث المعروفة ، إضافة إلى ذلك يبحث علم المناهج في مبادئ خلق مناهج وطرائق بحث جديدة يمكن استخدامها وتطبيقها في مجالات جديدة أفرزها الواقع، كما يبحث في الشروط المتعلقة بإمكان استخدام هذه المناهج والطرائق في المجالات الجديدة بما يواكب تطور الواقع.

مجالات علم مناهج البحث : إن مجال بحث علم المناهج لايقتصر على ما ذُكر فحسب، بل يشمل أيضاً التحقق الفعلي من كفاية المناهج والطرائق في الحصول على نتائج صادقة وصحيحة من الواقع المعطى، ويبحث في تركيب المناهج والعناصر التي تتكون منها وتصنيفها، وفي العلاقات الجوهرية بينها ، و يسير البحث العلمي على شكل خطوات أو مراحل، لكي تزداد عملياته وضوحاً، إلا أن هذه الخطوات لا تسير باستمرار، بنفس التتابع، ولا تؤخذ بطريقة جامدة، كما أنها ليست بالضرورة مراحل فكرية منفصلة، فقد يحدث كثيراً من التداخل بينها، وقد يتردد الباحث بين هذه الخطوات عدة مرات، كذلك قد تتطلب بعض المراحل جهداً ضئيلا، بينما يستغرق البعض الآخر وقتاً أطول ،وهكذا يقوم استخدام هذه الخطوات على أساس من المرونة والوظيفية.. وتختلف مناهج البحث من حيث طريقتها، في اختبار صحة الفروض، ويعتمد ذلك على طبيعة وميدان المشكلة موضع البحث، فقد يصلح المنهج التجريبي في دراسة مشكلة لا يصلح فيها المنهج التاريخي أو دراسة الحالة وكثيراً ما تفرض مشكلة البحث المنهج الذي يستخدمه الباحث، واختلاف المنهج لا يرجع فقط إلى طبيعة وميدان المشكلة، بل أيضاً إلى إمكانات البحث المتاحة، فقد يصلح أكثر من منهج في دراسة بحثية معينة، ومع ذلك تحدد الظروف المتاحة أو القائمة المنهج الذي يختاره الباحث[3] ،ويحدد أصحاب المنطق الحديث (المنهج) بأنه فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين سُمي منهج التحليل، حين نكون بها عارفين وبهذا يكون هناك اتجاهان للمنهج من حيث اختلاف الهدف، أحدهما يكشف عن الحقيقة، ويُسمى منهج التصنيف..

وعلى العموم فتصنيف مناهج البحث، يعتمد عادة على معيار ما، حتى يتفادى الخلط والتشويش. وعادة تختلف والثاني ي التقسيمات بين المصنفين لأي موضوع، وتتنوع التصنيفات للموضوع الواحد، فإذا نظرنا إلى مناهج البحث من حيث العمليات العقلية، التي توجهها، أو تسير على أسسها، أمكننا القول إن هناك ثلاثة أنواع من المناهج: النوع الأول: المنهج الاستدلالي أو الاستنباطي: وفيه يربط العقل بين المقدمات والنتائج، أو بين الأشياء وعللها، على أساس المنطق العقلي، والتأمل الذهني، فهو يبدأ بالكليات ليصل منها إلى الجزئيات. والنوع الثاني: هو المنهج الاستقرائي: وهو على عكس سابقه، يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة، ويعتمد على التحقق بالملاحظة المنظمة الخاضعة للتجريب والتحكم في المتغيرات المختلفة.. والنوع الثالث: هو المنهج ألاسترادادي: فيعتمد على عملية استرداد ما كان في الماضي ليتحقق من مجرى الأحداث، ولتحليل القوى والمشكلات التي صاغت الحاضر[4]..

تصنيف مناهج البحث: فإذا أردنا تصنيف مناهج البحث استناداً إلى أسلوب الإجراء، وأهم الوسائل التي يستخدمها الباحث، نجد أن هناك المنهج التجريبي وهو الذي يعتمد على إجراء التجارب تحت شروط معينة، ومنهج المسح الذي يعتمد على جمع البيانات ميدانياً، بوسائل متعددة، ويتضمن الدراسة الكشفية والوصفية والتحليلية، ومنهج دراسة الحالة، وينصب على دراسة وحدة معينة، فرداً كان أو وحدة اجتماعية، ويرتبط باختبارات ومقاييس خاصة، والمنهج التاريخي، ويعتمد على الوثائق والمخلفات الحضارية ُعد أبسط المناهج استعمالاً كطريقة بحث إن لم يكن أساسها، وفي نفس الوقت أهمها.

هوامش و مراجع المحاضرة :

1 _انظر: محمد زيان عمر، البحث العلمي، مناهجه وتقنياته، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2002 .

2_عبد االله عبد الرحيم عسيلان: لمحات في منهج البحث الموضوعي دار النشر الجامعي ،السعودية ،2007ص 68.

3_عبد الرحمن عبد االله أحمد المقبول: البحث التربوي أهميته, وممارسته، ومعوقاته، لدى المشرف من وجهة نظر المشرفين التربويين بمنطقة الباحة، خطة بحث منشورة على الإنترنت بتاريخ 2005/8/4.

4_ محمد زيان عمر، مرجع سابق .